

الفكرة الدينية عند مالك بن نبي ودورها في خلق الفعالية الحضارية

الأستاذة: سفاصن سعيدة - جامعة الجلفة

مقدمة :

إن التفكير في حالة تخلف المجتمعات الإسلامية وتراجعها عن الركب الحضاري، قد شغل بال الكثير من العلماء والمفكرين منذ بداية النهضة مع أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والذي تمثل أساسا في الحركات الإصلاحية المختلفة التي ظهرت في فترة اتسعت الحركة الاستعمارية الأوروبية واجتاحت معظم الأراضي العربية الإسلامية.

مالك بن نبي كان واحد من بين هؤلاء المفكرين، الذي عايش هذا الواقع الاستعماري المر بما أنه كان احد أبناء بقعة هذا العالم الإسلامي وهي الجزائر التي لم تسلم من هذه الظاهرة الاستعمارية، بل إن تبعات هذه الظاهرة في هذه المنطقة كانت اشد وطأة، بحكم المدة التي تجاوزت القرن مع ميلاد هذا المفكر والسياسة الاستعمارية التي كانت تخطط لإفقار المستعمر ماديا وتحطيمه ثقافيا.

لقد أثارت هذه الوضعية تساؤلات عدة عند مالك بن نبي، خاصة بعد إطلاعه على مجموعة من الكتب التي بدأت تصقل توجهه الفكري، مثل كتاب الإفلاس المعنوي لسياسة الغربية في الشرق لأحمد رضي ، ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، هذين الكتابين اللذين حاول من خلالهما مؤلفيهما ، أن يقدموا شواهد كثيرة عن حضارة المجتمع الإسلامي وغنى فكره، هذه الصور المضئية دفعت بهذا العقل الفتي أن يقارن بين ماضي هذه الأمة ومجدها، وبؤسها الاجتماعي وفقرها المدقع في عصره، هل الاستعمار هو السبب الرئيسي لهذه الوضعية أم هناك أسباب أخرى وما الاستعمار إلا الشجرة التي تخبئ الغابة ؟ ثم ماهو سبب فشل الحركات الإصلاحية التي حاولت بعث الحضارة الإسلامية مثل الحركة الوهابية وحركة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وابن باديس، رغم اعتراف بن نبي بالجهود التي كرستها هذه الدعوات لكن كانت النتائج نسبية إذا ما قورنت بالحركات الإصلاحية في أوروبا والتي أسفرت على نهضة أوروبية نلمس شواهدا اليوم أو إذا ما قورنت بنتائج تلك الهبات الاجتماعية التي دفعت ببعض المجتمعات كالمجتمع الياباني لأن يتصدر قائمة الدول المتقدمة والمتحضرة ،ماهر الشيء الذي افتقدته هذه المجتمعات الإسلامية والذي كان سببا في ميلادها ؟ وخاصة أن مالك بن نبي كان قد وضع نصب عينيه حديث الرسول (ص) قانون هو أشبه بالقوانين الفيزيائية وهو قوله (ص) : "لا يصلح اخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها" * ولقد فهم بن نبي من هذا الحديث، أن كل مجتمع يحمل في

داخله الصفات الذاتية التي تضمن استمراره وتحفظ شخصيته ودوره عبر التاريخ، وإن افترضنا صار خارج حلبة التاريخ ومن ثم يمكن أن يكون هذا القانون بداية فهم المشكلة الحضارية.

وعليه بدأ مالك بن نبي تحليله لظاهرة الحضارية من خلال البحث عن شروطها وذلك استنادا إلى المنهج التاريخي لدراسة عوامل الحركة التاريخية للفعالية الحضارية.

1 - الخلفية الاجتماعية والفكرية لمالك بن نبي

يكون من الصعب فهم فكر مالك بن نبي إذا لم نضعه في الإطار الاجتماعي ونحيط بالعوامل الفكرية التي ساهمت في بلورته مالك بن نبي من مواليد سنة 1905 بقسنطينة وهي الفترة التي يقول عنها: "إن من ولد بالجزائر سنة 1905 يكون قد أتى في فترة يتصل فيها وعيه بالماضي المتمثل في أواخر شهوده وبالمستقبل المتمثل في أوائل صائغيه"¹ وهي بالفعل فترة تعتبر حلقة وصل بين ماضي عريق انطفأ نجمه ومستقبل لا يزال في بداية صياغته وتشكله.

ولد مالك بن نبي في أسرة فقيرة حيث كان أبوه يشتغل بمنصب خوجة بالإدارة الفرنسية في تبسه وعلى عادة أهل البلد التحق بن نبي بالكتاب وبقي يتردد عليه لمدة أربع سنوات لم يتمكن من خلالها سوى حفظ جزء يسير جدا من القرآن الكريم وكان يقصد هذه المدرسة قبل الثامنة موعد دخول المدرسة الفرنسية التي التحق بها وهذا بحكم رغبة أبيه الذي كان يطمح بأن يكون لابنه مهنة تضمن له مستقبلا زاهرا، وكان لهاتين المدرستين تأثيرا كبيرا في صقل فكره إذ سمحت له المدرسة القرآنية بالمحافظة على هويته الإسلامية في حين مكنته المدرسة الفرنسية من اخذ المنهج العلمي الديكارتي الذي سمح له بنقد العقلية الميثولوجية التي تتوافق والخرافات النامية بالجزائر آنذاك والتي انتشرت وشملت كل جوانب الحياة الفكرية السياسية والاجتماعية وفي سنة 1918 حيث أنهى دراسته الاعادية والتحق بالثانوية بقسنطينة وكانت هذه الفترة بشهادة المفكر أهم فتره في حياته، فهو يذكر في مذكراته كل من الشيخ عبد المجيد أستاذ اللغة وعلوم الدين والسيد مارتان أستاذ التعليم العام في الثانوية ، اللذان زعرا في فكره بذور توجهاته الفكرية: "لقد اضطرني ذلك مع زميل لي بتبسة نجح مثلي في امتحان المنحة أن أسجل نفسي في دروس الشيخ عبد الحميد هذا الشيخ من ناحية ومسيو مارتان من ناحية أخرى كونا في عقلي خطين حددا فيما بعد ميولي الفكري"² تمثلا أساسا في الحفاظ علي المبادئ الإسلامية والانفتاح على الحضارة الغربية وعلومها.

سافر مالك بن نبي مع صديق له إلى فرنسا أملا في إيجاد عمل بعد أن فقد الأمل في الجزائر وزار كل من مرسيليا وليون وباريس لكن دون جدوى فعاد مرة أخرى إلى تبسه حيث أصبح يتردد علي نادي يديره الشيخ العربي التبسي وفي نفس الوقت حاز على منصب مساعد يعمل مع

المكلفين بتنفيذ الأحكام في الأرياف المجاورة لتبسه إلى أن عين كاتباً رسمياً في المحاكم فعمل سنة بأفلو بولاية الأغواط ثم حول بطلب منه إلى تبسه، ليعمل شريكاً مع صهره في مطحنة لكن الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم سنة 1929 لم تترك خيار لابن نبي فباع المطحنة وعاد إلى فرنسا سنة 1930 حيث قام بتسجيل اسمه للإمتحانات بمعهد الدراسات الشرقية إلا أنه لم يوفق في ذلك لأن الدخول كما يقول مالك بن نبي بالنسبة لمسلم جزائري لم يكن ليخضع لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي³ بعد عام تزوج بفتاة فرنسية اعتنقت الإسلام وسمت نفسها خديجة كانت سنداً مادياً ومعنوياً لزوجها وأشارت عليه، دخول مدرسة الأسلكي لدراسة هندسة الكهرباء حيث تخرج منها سنة 1935.

التقى مالك بن نبي بعدة شخصيات أبرزهم حمودة بن ساعي وقابل المهاتما غاندي الذي زار باريس عام 1932 وتعرف على شخصيات أزهرية بفرنسا أمثال الشيخ محمد عبده والتقى مع بعض الشخصيات الجزائرية التي حلت بفرنسا لمطالبة السلطات الفرنسية بعض الحقوق السياسية كالتمثيل البرلماني ومن بين هذه الشخصيات الشيخ ابن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي ممثلي جمعية العلماء المسلمين التي يرى فيها مالك بن نبي أملاً لتغيير الأوضاع السائدة في المجتمع الجزائري خاصة من خلال خطتها التربوية لمحاربة المخالطات الفكرية والدينية التي انتشرت في المجتمع فهو يقول: "لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة وبدا الشعب الجزائري المخدر يتحرك"⁴.

اطلع مالك بن نبي على عدة كتب كان لها تأثيراً واضحاً على فكره فيما بعد حيث قرأ لمحمد عبده كتابه "رسالة التوحيد وقد اتفق بن نبي معه في أن الإصلاح يجب أن يبدأ من إصلاح الفرد واطلع أيضاً كتاب أم القرى لشيخ عبد الرحمان الكواكبي والذي يرى فيه أنه تحليل قيم لمشاكل الشرق حيث يقول: "لقد عرفني بإسلام ينظم صفوفه ليدافع عن نفسه ويقوم بحركة بعث جديدة"⁵. كما اطلع مالك بن نبي على كتاب كيف نفكر لجون ديوي الذي أخذ منه فكرة الربط بين التفكير والعمل فالفكر الذي لا يرتقي بصاحبه إلى مستوي العمل هو فكر لا جدوى منه ولا يمكن أن نغفل عن تأثير كتاب المقدمة لابن خلدون على فكر بن نبي حيث أخذ منه فكرة الأطوار التي تمر عليها الحضارة الإنسانية أو ما يعرف بالدورة الحضارية عند ابن خلدون وهناك من يرى أن فكر مالك بن نبي هو امتداد لفكر ابن خلدون فكليهما لم ينصهرا في النص الإسلامي فحسب، بل تعدى إلى غاية ساحة التطبيق العملي في المجتمع وهذا بغية إعادة بناء الحقيقة الموضوعية في نظر العقل المسلم كما تجاوز كل منهما دائرة مدح الإسلام والافتخار بماضيه واتجه إلى رؤية نقدية للبحث عن الخلل في سير الأمة.

كما قرأ بن نبي للمستشرقين مؤلفات عن الإسلام مثل كتاب "الإسلام بين الحوت والدب" لـ"لاوجين يونغ وكتاب "تحت ظلال الإسلام الدافئة" لإيزابيل ابريهات إضافة إلى مداومته على قراءة الصحف اليومية الجزائرية والفرنسية، كالإقدام التي كان لها تأثيرا بالغا على نفسيته وقد قال في هذا الصدد: "فكانت الإقدام تفصح رجعية الإدارة المستعمرة وسوء استغلالها للسلطة" وصحيفة الإنسانية التي يعلق عليها فيقول: "كانت تروي أكثر ظمئ الوطني فمقالات كاشان وقيان كوتوريه تثير في نفسي ثورة الغضب أو تصب في قلبي أطيب العزاء" ⁶ كما كان بن نبي على اطلاع كبير بالأدب العربي والعالمي فقد قرأ لامرئ القيس وحافظ إبراهيم وفرابليه وفيكتور هوغو، هؤلاء الذين أثروا أبعاد اللغة الفرنسية والعربية عنده بل اطلع على الأدب الهندي من خلال ما قرأه لرابندرات طاغور الذي يقول عنه بن نبي: "إنما هذا الشاعر حررني من إفريقيتي بعض الشيء وأطلق ذهني من قيود فرضها الاستعمار" ⁷.

وتجدر الإشارة هنا إلا أن معظم هذه القراءات كانت في بداية مشواره التعليمي بين المرحلة الإعدادية والثانوية مما سمح بظهور عناصر النبوغ الفكري المبكر التي صقلت بالتكوين الذي اتبعه مالك بن نبي كمهندس في الكهرباء واطلاعه على العلوم الأخرى كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم مقارنة الأديان الذي كان شغوفا بمطالعتها. كل هذا الاطلاع المزوج للفكر العربي والغربي لمالك بن نبي ساعد على ظهورا نتاج فكري غزير تجلّى في مؤلفاته المتعددة فكان أول كتاب أصدره هو "الظاهرة القرآنية" سنة 1946 وآخر كتاب له تمثل في "دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين" سنة 1973 أي في مدة 27 سنة ظهر له 22 كتابا أي بمعدل كتاب كل سنة ⁸ تقريبا وكان معظم إنتاجه باللغة الفرنسية مما دفعه إلى الاستعانة ببعض زملائه وطلبته في ترجمتها وبرز الذين ترجموا له الأستاذ عبد الصابور شاهين والأستاذ عمر مسقاوي. إن أهم الأعمال التي تحسب لهذا المفكر بعد عودته إلى الجزائر سنة 1963 هو تنظيمه لمؤتمر الفكر الإسلامي الذي كان يعقد كل سنة بمدينة من مدن الجزائر ابتداء من 1966 وكان الهدف منه هو التقاء أكبر عدد من المفكرين المسلمين للنظر في المشاكل التي يعاني منها العالم الإسلامي والتي تحتاج إلى دراسات علمية دقيقة.

استمر بن نبي في عمله الفكري إلى أن وفته المنية في 31 أكتوبر 1973 عن عمر يناهز 68 عام وقد كتب عن نفسه في أواخر أيامه: "إنني اشعرا كثر فأكثر في هذه السنة التاسعة والستين من حياتي شعور ارتياح، إنني كرجل على ظهره حمل ثقيل ويشكر المولى تعالى أن وفقه على نقل الحمل على أبعاد وأطول ما يمكن لكن ينتظر وقت وضعه، إن حياتي كانت ثقيلة الحمل واني استشف نهايتي بارتياح" ⁹. لقد أفنى مالك بن نبي حياته وهو يفكر في حال أمته ومحاولة تخطي أزمتها وإرجاعها إلى مسرح التاريخ والقيام بالمهمة التي شرفها الله بها "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر" ¹⁰.

2 - عوامل الحركة التاريخية عند مالك بن نبي ونشوء الفعالية الحضارية

بداية يجب أن نقف عند أهم المفاهيم التي تشكل محور الموضوع المطروح عند مالك بن نبي ونقصد بذلك مفهوم الحضارة، الدين، المجتمع، الفعالية.

1-2 مفهوم المجتمع

يميز بن نبي بين الجماعة الإنسانية وبين المجتمع فالجماعة الإنسانية هي التي خرجت عن نطاق التاريخ وهي الجماعات التي لم تغير من صور وجودها وأشكال حياتها وبقيت على شكلها الطبيعي وتحجرت فيها الصفات الاجتماعية فلو أخذنا كما يقول مالك بن نبي من حياتها الاجتماعية فترتين زمنييتين متباينتين تفصل بينهما آلاف السنين لوجدناهما متطابقتين ولم يتغير فيهما شيء وهذا هو حال بعض القبائل المتواجدة في أعماق إفريقيا الاستوائية أو استراليا وهي تعتبر عينة للدراسة من طرف المختصين في علم الأجناس والانثربولوجيين لتقرب من الأشكال الأولية للحياة البشرية وبالتالي كل جماعة لا تتطور ولا يعترئها تغير في حدود الزمن تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمة مجتمع. أما تعريف المجتمع الذي نجده في القواميس على انه "تجمع أفراد ذوي عادات متحدة، يعيشون في ظل قوانين واحدة ولهم فيما بينهم مصالح مشتركة" مثل هذا التعريف يعتبره بن نبي تعريفا وصفيا لا يشير في الأساس إلى بنية ووظيفة المجتمع وعليه يرى أن تحديد مفهوم المجتمع يجب أن يكون في إطار علاقته الجدلية مع الزمن فالمجتمع بالنسبة إلى هذا المفكر هو: "تلك الجماعة التي تغير دائما خصائصها الاجتماعية بإنتاج وسائل التغير مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغير" ¹¹ إذن هو تنظيم إنساني يتم طبقا لنظام تتسم خطوطه العريضة فيما يلي:

1- حركة مستمرة. 2- إنتاج دائم لأسبابها. 3- تحديد الهدف.

وفقا لهذه الشروط الثلاث تكتسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة أي عندما تبدأ في تغيير من أجل الوصول إلى غايتها وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع ما يسميه مالك بن نبي بميلاد مجتمع وبالتالي لحظة انبثاق حضارة.

2-2 مفهوم الحضارة

يعرف العالم الانثربولوجي ادوارد تايلور الحضارة على أنها: "هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل على المعرفة والاعتقاد والفن والأخلاق والقانون وكافة القدرات والعادات الأخرى التي يكسبها الإنسان كعضو في العضو" ¹². و يعرفها ابن نبي بأنها: "الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من الأفراد في كل طور من أطوار وجوده من الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية لهذا الطور أو ذاك من أطوار عمره" ¹³ وقد حدد بن نبي مفهوم

الحضارة من ثلاث نواحي ، من حيث تركيبها ، وظيفتها ونشأتها. أما من حيث تركيبها نجد أن بن نبي يصيغها في المعادلة التالية: الإنسان + التراب + الوقت = حضارة

إنسان يحمل فكرة وفي حوزته وقت و تراب كوسائل مادية تساعد في تحقيق فكرته وفكرة دينية تعتبر بمثابة المركب الذي يجعل من هذه العناصر فعالة تنشأ الحضارة.

أما وظيفة الحضارة فهي تعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة ويدرك في الوقت نفسه الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية ويؤكد بن نبي قول أرسطو في أن الحضارة هي حماية للإنسان لأنها تظهر حاجزا بينه وبين الهمجية.

2-3 مفهوم الدين

يعرفه ابن نبي على أنه: "رسالة تنزل عن طريق الوحي يهبط من السماء ليكون لناس شرعة ومنهاجا أو هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي"¹⁴.

إذن فالدين عنده هو تلك العلاقة الروحية التي تربط بين الله والإنسان والتي توحى بدورها للعلاقة الاجتماعية التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان ليكون ما يسميه مالك بن نبي شبكة العلاقات الاجتماعية، وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الدين عند مالك بن نبي لا يشتمل على الأديان السماوية فحسب بل يشمل الأديان الوضعية، فحسب بن نبي كل مشروع أو فكرة تشحن الناس وتحدد لهم مستقبلا وتغرس فيهم الطموح تعتبر دينا وعلى هذا الأساس فكل فكرة تحدث في ذات الفرد ما تحدثه أي فكرة دينية أخرى فهي تعتبر دين بحكم أن هذه الفكرة تحولت إلى عقيدة وعليه لا يعتبر بن نبي الشيوعية مذهب سياسي أو اجتماعي فحسب بل هي "عقيدة تمثل نشاط المؤمنين المدفوعين بالقوى الداخلية بنفس القوى الداخلية التي دفعت غيرهم من المؤمنين في مختلف العصور"¹⁵ كما يعرف الدين من الناحية الوظيفية على أنه "مركب للقيم الاجتماعية يجعل من الإنسان عضوا فعالا ومن الوقت الذي ليس سوى مدة زمنية وقتا اجتماعيا مقدر بساعات العمل ومن التراب مجالا مجهزة"¹⁶ وبعبارة أخرى فالدين هو الذي ينشئ الفعالية في عناصر الحضارة .

2-4 مفهوم الفعالية

التحديد اللغوي: الفعالية لغة هوكون الشيء فعالا والشيء الفعال هو الشيء الناجع، النافذ والمؤثر¹⁷. أما عند بن نبي فهي: "الفعالية أو التوتر حالة نفسية اجتماعية دل التاريخ على أنها تنشأ في ظروف معينة وتزول في ظروف أخرى، وان المبررات هي التي تكون الدوافع الإنسانية التي تدفع النشاط إلى أعلى قيمته...وان الفعالية تدخل في بناء الشخصية عن طريق التمثل النفساني لعناصر الثقافة التي يمتصها الفرد في الجو الاجتماعي الذي يعيش فيه"¹⁸.

إذن الفعالية هي تلك الإرادة التي تكون نتيجة لحالة نفسية تخلقها دوافع وظروف نفسية واجتماعية تجعل من الإنسان مستعداً لتغيير وضعه وواقعه مهما كان.

3 - الفكرة الدينية كمركب لعناصر الحضارة

كان من الضروري جداً أن نعرف دلالات هذه المفاهيم لكي نسترسل في شرح دور الدين في إنشاء الحضارات عند المفكر مالك بن نبي، وإن كانت الفكرة قد تناولها من قبله بعض علماء الاجتماع أمثال ماكس فيبر الذي أراد من خلال كتابه "الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية" أن يؤكد حقيقة مفادها أن الدين أو الأخلاق الدينية هي نظام اجتماعي له وظيفة اجتماعية ولها تأثير على الأنظمة الاجتماعية الأخرى كما أكد كسرلنج دور الدين في تأسيس الحضارات بقوله: "وكان أعظم ارتكاز حضارة أوروبا على روحها الدينية..ولست اعني بالروح ذلك الشيء الدال على منطق أو عقل أو مبادئ مجردة وإنما هو بصفة عامة ذلك الشعور القوي في الإنسان والذي تصدر عنه مخترعاته وتصوراتهِ وتبليغهُ لرسالته وقدرته الخفية على إدراك الأشياء" ¹⁹.

لقد رأينا في تحديد مفهوم المجتمع عند بن نبي ، أن الجماعات الإنسانية المعنية بظاهرة الحضارة هي الجماعة التي تركت أو تعمل على أن تترك بصمتها في التاريخ وهذا من خلال حركيتها لأن عادة التاريخ لا يلتفت للأمم التي لا تحرك ساكناً يقول مالك بن نبي: "أن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل الحياة الراقية هو ما نطلق عليه اسم الحضارة" ²⁰ لكن إذا كانت النقطة الفاصلة بين الجماعة الثابتة والمجتمع تتمثل أساساً في عامل الحركة فيجدر بنا أن نتساءل عن مولد تلك الحركة أو بلغة علم الاجتماع ما هي أسباب الحركة التاريخية للمجتمعات الإنسانية ؟

لقد اختلف الفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين في تفسيرهم لأسباب الحركة التاريخية للمجتمعات الإنسانية، فنجد مثلاً إن هيجل يرجع أسباب هذه الحركة إلى مبدأ التعارض الذي يتكون من الموضوع ونقيض الموضوع ومركب الموضوع ، ويشرح لنا هيجل هذه العملية التي تتمثل في أن لكل موضوع نقيضه أي أن كل فكرة أو نظام يبدأ تأكيد ذاته ثم ينمو وينضج ويبدأ في فرض نفسه وهنا يخلق قوى معارضة ومناقضة (نقيض الموضوع) وهنا أيضاً يحتدم الصراع بين الموضوع ونقيضها حتى يظهر شكل أو فكرة أو موضوع أكثر رقياً تتصالح فيه القوى المتعارضة (مركب الموضوع) وهكذا يحدث التطور وتتم الحركة وتظهر أهمية التناقض بوصفه محرك التاريخ، أما ماركس فقد اخذ بفكرة التعارض عند هيجل لكن خالف أستاذه في المستوى الذي يحدث فيه هذا الصراع فإذا كان الصراع يحدث عند هيجل على مستوى الأفكار فعند ماركس هذا الصراع يحدث على مستوى المادة فحوادث العالم ما هي إلا أوجه مختلفة

للمادة في تطورها وبالتالي فإن طابع التغيرات الاجتماعية هو ذات طابع اقتصادي ²¹ أما المؤرخ الانجليزي جون ارنولد توينبي فقد ارجع أسباب هذه الحركة للعامل الجغرافي والذي يخلق تحديات للمجتمعات الإنسانية التي تتجاوب معها إذن نشوء الحركة يأتي من هاذين العاملين "التحدي والاستجابة فقيام الحضارات عند هذا المؤرخ هو نتيجة تفاعل بين التحدي الذي تفرضه الظروف الطبيعية القاسية وبين الاستجابة التي تكون من طرف المجتمع والتحدي الأمثل الذي يخلق إرادة المواجهة ورد فعل ناجح هو التحدي الأوسط الذي يقع بين الإفراط والتفريط وهو الذي يسميه توينبي بالوسط الذهبي ²².

لقد راجع مالك بن نبي هذه النظريات السابقة، لكنه يرى أنها عاجزة على تفسير نشوء حركة المجتمع الإسلامي وخاصة نظرية ماركس بحكم أن مجال تطبيق هذه النظرية محدودة فإذا كان أساس الحركة عنده هو الصراع الذي يحدث على مستوي البنية التحتية فإن الجزيرة العربية لم تكن لديها أية بنية اقتصادية، فمعاشها كان يرتكز أساسا على الرعي والتجارة، أما نظرية توينبي فانه يضعنا أمام تساؤل لا نجد له جواب عنده فتأثير الوسط الطبيعي على الإنسان لا يفسر لنا مثلا لماذا تقوم حضارات معينة في زمان ومكان دون أن يكون هناك مؤشر لقيامها قبل ذلك التاريخ، علما أن الوسط البيئي لم يتغير؟ فعرب الجزيرة العربية عاشوا فيها لقرون دون أن تتغير حياتهم ولم يستطيعوا أن يؤسسوا أي حضارة لكن استطاعوا أن ينشئوها بتأثير عامل آخر يختلف عن التحدي الذي يتكلم عنه توينبي انه العامل الديني أو الفكرة الدينية التي أحدثت تغيرا جذري في عالم الأشخاص وعالم الأشياء كيف ذلك؟ يستعير مالك بن نبي شرح فكرته من ارنولد توينبي مفهوم التحدي والاستجابة لكن بن نبي استساغه في ضوء عامل آخر كما يؤكد في قوله: "ونحن يمكننا إلى حد ما أن نصوغ هذا الرأي الذي ذهب إليه توينبي صياغة جديدة في ضوء القرآن الكريم" ويستخدم هنا مالك بن نبي التحليل النفسي حتى يوضح لنا اثر الفكرة الدينية في إحداث الحضارات فيقول: "إن المنهج الذي يتناول واقعة الحضارة لا على أنها سلسلة من الأحداث يعطينا التاريخ قصتها بل ظاهرة يرشدنا التحليل النفسي جوهرها، هذا المنهج هو القادر فيما اعتقد على أن يستجلي لنا طريقة أوضح الدور الايجابي والفعال للفكرة الدينية في تركيب تلك الواقعة " ²³ ويقول أيضا: "ومن هنا يتعين علينا اللجوء إلى لغة التحليل النفسي بغية تتبع اطراد الحضارة باعتباره صورة زمنية للأفعال وردود الأفعال المتبادلة " ²⁴ ومن هنا يشرح مالك بن نبي كيف أن القرآن الكريم قد وضع الفرد المسلم بين حدين هما الوعد والوعيد ومعنى هذا انه وضعه في انسب الظروف التي يمكن أن يجيب عن تحد روعي.

فالوعيد هو الحد الأدنى الذي لا يوجد دونه جهد مؤثر ونجده في قوله تعالى "قلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون" ²⁵ والوعد هو الحد الأعلى الذي يصبح الجهد من ورائه مستحيلا وذلك عندما تغطي قساوة التحدي على القوة الروحية ونجد هذا في قوله تعالى "انه لا يئس من روح

الله إلا القوم الكافرون " ²⁶ هذا التحدي الذي يبقى بين الرجاء في رحمة الله والخوف من عذابه يجعل المسلم يعيش حالة نفسية متوازنة لا إفراط فيها فيقنط من رحمة الله فتكبل قواه ويجنح إلى اليأس ولا تفريط في رحمة الله فيستسهل الأمور ما دام هناك رب رحيم فيركن إلى الكسل ويدخل باب التسويف، أن حالة التوتر النفسي التي تضع المسلم بين هذين الحدين يجعله في عمل دؤوب لا يرتاح حتى يأتيه اليقين.

إذا فباعث الحركة عند بن نبي يعود إلى العامل الديني أو الروحي الذي يؤثر في نفسية الفرد "ولهذا نجد أن آلية الحركة التاريخية إنما ترجع في حقيقتها إلى جملة من العوامل النفسية التي تعد نتاجا عن القوى الروحية التي تجعل من النفس المحرك الجوهرى للتاريخ الإنسانى" ²⁷ فالفكرة الدينية هي التي تشحن الطاقات وتفعّل العناصر الأساسية التي ذكرها بن نبي لتأسيس الحضارة: فعالية عالم الأشخاص، فعالية عالم الأفكار وفعالية عالم الأشياء ويوضح لنا بن نبي فعالية الفكرة الدينية في نشو الحضارة من خلال تعقبه لمراحلها التي تمر عليها وهي ثلاث:

1- مرحلة فعالية الروح : تبدأ هذه المرحلة من بعثة الرسول (ص) إلى موقعة الصفين

وهي مرحلة بناء القاعدة التي تكون منها الانطلاقة، هي مرحلة التربية وتهذيب النفوس حتى تكون مستعدة لحمل الرسالة المنوط بها فالإنسان العربي في هذه المرحلة إنسان فطري بمعنى أنه إنسان يحمل معه جميع غرائزه كما وهبتها إياه الطبيعة فتولت الفكرة الدينية إخضاع غرائزه إلى عملية شرطية تخضع لمقتضياتها الأخلاقية فنظمتها ولم تكبتها فحرمت الزنا وأحلت النكاح وحرمت الربا وأحلت الاستثمار، ونهت عن العصبية وأمرت بالمؤاخاة فالفكرة الدينية في هذه المرحلة حولت الطاقة الحيوية للإنسان من طاقة ذات وظائف بيولوجية خالصة، إلى طاقة ذات وظائف اجتماعية وبمعنى آخر، إن الفكرة الدينية حولت الأفراد من ذوات منفردة إلى ذوات اجتماعية، فكونت شبكة من العلاقات الاجتماعية التي يعتبرها بن نبي سر ميلاد أي مجتمع واستمراره، فاجتماع الأفراد وتكوينهم مجتمع لا يكون بمحض الغريزة ولكن هو نتيجة لفكرة عليا تؤلف بين قلوبهم فيصبح نشاطهم نشاطا مشتركا يسير وفقا لغاية مشتركة تحددها تلك الفكرة، وعليه كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي الأول هو الميثاق الذي ربط بين الأنصار والمهاجرين، فكان ذلك التحول النوعي لقبائل متفرقة متناحرة إلى مجتمع موحد ينشد دخول التاريخ. ويذكر لنا بن نبي بعض مشاهد هذا التحول عند الصحابة كموقف الصحابي سعد بن عبادة الذي قدم جزءا من أمواله لمواجهة ضرورات الحرب التي ستبدأ بمعركة بدر ويعقب على عمله بقوله "يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت وما أخذته منها أحب إلينا مما تركت" فهذا المثال يوضح لنا كيف أن الطاقة الحيوية في صورة غريزة التملك المطبوعة في الإنسان تتحول إلى طاقة محكومة وموجهة نحو المهام الاجتماعية ²⁸، وكذلك نقرا من سلوك عمر بن الخطاب الذي طلب من رعيته بأن يقوموه إذا رأوا فيه اعوجاجا روح التواضع وإن المسؤولية تكليف

وليس تشريف ، هذه بعض الأمثلة التي كانت في الحقيقة تترجم فعالية الروح في تحويل المبادئ والقيم إلى أفعال ، فالتعاليم الدينية التي كانت تملئ على الأفراد كانت تطبق في أرض الواقع ، لان الفرد في هذه المرحلة كان يعي أن الجنة التي هي مطلبه لن يدخلها إلا بالعمل الذي لم يعد مجرد جهد عضلي يقوم به الفرد للحصول قوته ، إنما أصبح قيمة في حد ذاته أصبح عبادة يتقرب العبد بها لربه "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله " ²⁹ ولهذا أراد الرسول (ص) عندما عندما جاء إليه قوم وفيهم رجل فسأل عنه فأخبره القوم انه رجل انصرف للعبادة فلما سأل النبي :ومن يؤكله ؟أجابوه :كلنا نؤكله فقال النبي : كلكم خير منه ³⁰.

2- مرحلة فعالية العقل : وهي امتداد لفاعلية الروح ولكن في هذه المرحلة سيعرف المجتمع الإسلامي نقلة نوعية تتمثل أساسا في امتداد رقعة الجغرافية مع الفتوحات الإسلامية التي امتدت إلى مشارق الأرض ومغاربها، وانفتاح هذا المجتمع الفتحي على الحضارات التي سبقته سمحت له بالاطلاع على علومها المختلفة واستيعاب نتائج تلك العبقريات دون عقد أو تزمّت لان النفوس كانت صافية تتطلع إلى كل ما ما يمكن أن يشبع فضولها الفكري، فظهرت حركة الترجمة حيث ترجمت عدة كتب في مختلف العلوم بل إن هذا الانفتاح على الآخر سمح بتتقيح بعض الأفكار وتطويرها بفضل القيم الإنسانية الجديدة التي جاءت بها الفكرة الدينية.

عرفت إذن هذه المرحلة ازدهار فكري وعقلي وتطورت العلوم في مختلف المجالات الدنيوية كطب والفلك بل إن هذه الحركة الفكرية امتدت إلى المجال الديني ففتحت أبواب الاجتهاد أمام مسائل جديدة فرضتها مقتضيات المرحلة ، وظهرت المدارس الفقهية الأربع وظهرت انجازات ضخمة شملت مظاهر العمران وتطوير تقنيات توسيع المدن وإنشاء المرافق التي تساهم في إعطائها صبغة حضارية والشواهد كثيرة على ذلك.

يمكن إذن اعتبار مرحلة فعالية العقل هي المرحلة التي حقق فيها المجتمع الإسلامي الأول الفعالية الحضارية فإذا كانت مرحلة الروح هي مرحلة إنتاج القيم الحضارية فان مرحلة فعالية العقل تتمثل في انفجار القدرات والمواهب والإمكانيات العقلية وتحويلها إلى منتج حضاري لكن ينبه بن نبي إلى نقطة مهمة أن استمرارية مرحلة العقل تكون باستمرارية فعالية الروح ³¹ لكن عندما ينصرف الفرد إلى حياة الترف ويصبح المجتمع مجتمع مستهلك تبدأ فعالية الروح في الانزواء وتبدأ بوادر المرحلة الثالثة وهي مرحلة اللافعالية .

3 - مرحلة اللافعالية : تمتد من سقوط دولة الموحدين إلى يومنا هذا في هذه المرحلة ينصرف المجتمع إلى حياة الترف فيكون بمثابة إعلان سقوط الحضارة، وقد سبق العلامة ابن خلدون أن نبه إلى هذا، رابطا المفاصد التي تنتشر في المجتمع بانتهاء العمران فيقول "من مفاصد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها من كثرة الترف، فيقع التفنن في شهوات البطن

من مأكّل ومشارب ويتبع ذلك التفتن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط " ³²، تبدأ الفعالية الحضارية في الزوال مع بداية غياب التوازن بين الروح والعقل فعندما تتحول هذه الفكرة الدينية إلى مجرد طقوس وتتجمد أبعادها في إطارها التعبدي ، وعندما ينزوي الإيمان عند مستوى الأفراد ويفقد امتداده الاجتماعي وعندما يصبح الإنسان والتراب والوقت عناصر خامدة تسقط الحضارة، ويمكن أن نلخص هذه المراحل الثلاث بقول بن نبي "التاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاتها الأساسية وينتهي التاريخ بالإنسان المتحلل بالفرد الذي يعيش في مجتمع منحل لم يعد يقدم لوجوده أساسا روحيا أو ماديا فليس أمامه إلا أن يفر إلى صوامع المرابطين أو إلى مستقر آخر وهذا الفرار صورة فردية للتمزق الاجتماعي " ³³، و يخص مالك بن نبي هذه المرحلة بالعناية لأنها المرحلة التي لا تزال نعيش في رواسيها لكن الذي تميز به بن نبي أن تشخيصه لهذه الحالة المرضية التي تعيشها المجتمعات الإسلامية بكاء على الأطلال وإنما رغبة منه في اكتشاف أصل الداء ومحاولة النهضة من جديد ولهذا نجده يختلف نوعا ما مع الحركات الإصلاحية التي كانت تحاول أن تنفض الغبار عن الأمة الإسلامية وتبث فيه روح التجديد كما قام به محمد عبده الذي رأى أن مشكلة التخلف مردها نفسية الفرد المسلم الذي تراجع عن عقيدته وعليه يتعين إصلاح العقيدة عنده بإصلاح علم الكلام ، وإن كان بن نبي يتفق مع محمد عبده في أن المشكلة تكمن في ذوات الأفراد لكن يختلف معه في فكرة إصلاح علم الكلام، لأنه يرى أن هذا الأخير لا يواجه الوظيفة الاجتماعية للدين بل يعتمد أساسا على الجدال الذي يستنفذ فيه الجهد والطاقة في الكلام دون الفعل ³⁴، فالمسلم الحالي حسب رأي بن نبي لم يتخلى عن عقيدته بل عقيدته هذه تجردت من فعاليتها لأنها فقدت دورها الاجتماعي فالحل إذن لا يكمن في أن نعلم المسلم عقيدته وإنما أن نرد لهذه العقيدة وظيفتها الاجتماعية بمعنى آخر أن المشكلة ليس في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر أن نشعره بوجوده لأننا عندما نقارن عدد المساجد في البلدان العربية الإسلامية وعدد المقبلين عليها لا ينتابنا شك في أن العقيدة مازالت مرسخة في نفوس المسلمين، لكن تدين هؤلاء لا تمتد أبعاده الشخص أو الفرد وعليه يذكر بن نبي مظاهر اللافعالية في عدة مستويات سواء كان على المستوى الفردي، الاجتماعي، الفكري الاقتصادي والسياسي.

4- مظاهر اللافعالية عند مالك بن نبي

المستوى الفردي: تظهر اللافعالية في هذا المستوى في تضخم الأنا، فأصبح الفرد لا يرى إلا نفسه ولا يهتم إلا بمصلحته ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، وهذا خلافا لكل التعاليم الدينية التي تحثه على التواصل الاجتماعي والنظر في شؤون غيره بداية من محيطه الأسري إلى محيطه الجوّاري إلى محيطه الاجتماعي، بل أصبح الدين مسألة شخصية تقف عند المستوى الفردي عندما غيب في النفوس أبعاده الاجتماعية وبالتالي تعطلت فعالية الإيمان وحول من طاقة

محولة كما رأيناه في مرحلة فعالية الروح والعقل، إلى طقوس وحركات خالية من كل روح بل إن الأفراد أصبحوا ذوات ذرية تعتقد أنها في غنى عن الآخر لان الرفاهية المادية ستموله بكل مستلزماته، فانغمس الأفراد في الماديات ورجعوا إلى طبيعتهم الحيوانية والطبيعية والتي تعبر عنها العبارة التي يرددها إنسان شمال إفريقيا عندما يسأل عن مغزى وجوده "تأكل القوت ومنتظر الموت"³⁵ ولا يوجد تعبير حسب بن نبي أكثر وضوحا من هذا التعبير عن فقدان الأفراد لمبررات وجودهم هذا المبرر الذي يمثل شرط من شروط الحركة والتغيير.

4-1 المستوى الاجتماعي: إن التفكك الذي حدث في الفرد انعكس على المجتمع تفككا عاما في شبكة علاقاته الاجتماعية، وهذا اكبر خطر يهدد المجتمع وقد تناول علماء الاجتماع ظاهرة التضامن الاجتماعي في المجتمعات الإنسانية التي تؤسس الروابط الاجتماعية وبالأخص أقست كونت وإيميل دوركايم هذا الأخير الذي تكلم عن صور التضامن في شكله الآلي أو الميكانيكي وشكله العضوي أو الوظيفي فالشكل الأول يسود المجتمعات البدائية التي تتميز بالتجانس أي أن أفرادها متشابهين لكن حالة التجانس هذه قد تحولت باطراد إلى حالة من عدم التجانس نتيجة لتطور الصناعي وبروز ظاهرة تقسيم العمل وبالتالي بداية ظهور التباين والاختلاف في الوظائف والأدوار، وترتب عن ذلك اختفاء الشكل الأول من التضامن لكن المجتمع الجديد سينشأ شكلا جديدا من التضامن وهو التضامن العضوي ففي ظل التخصص لا يمكن أن يشبع كل فرد احتياجاته بنفسه بل يظل في حاجة دائما إلى الآخرين، لكن الوقع اثبت لدوركايم أن العلاقات الوظيفية التي يركز عليها التضامن العضوي لا تضمن دائما استقرار العلاقات الاجتماعية في غياب الاتفاق الأخلاقي الذي يقترحه أستاذه سان سيمون وكونت كحل لإعادة الأوضاع للمجتمع الفرنسي بعد الثورة الفرنسية وان كان هذا الاتفاق الأخلاقي من وحي المجتمع لكن الفكرة الأساسية التي يمكن أن نستوحيها عند هؤلاء العلماء هي الأهمية التي تكتسيها شبكة العلاقات الاجتماعية وهنا افتح قوس لكي أقول أن فكر مالك بن نبي هو فكر سوسيولوجي حاول أن يفهم الأبعاد الحقيقية للظواهر المعتلة بمفهوم دوركايم وقبل هذا أن يستنبط استنادا إلى ثقافته القوية واطلاعه الواسع و تكوينه العلمي القوانين التي تحكم تطور المجتمع الإنساني وعلى رأسها قانون التضامن الاجتماعي والتاريخ يؤكد أن ميلاد المجتمعات أو أقولها مرتبط بالدرجة الأولى بقوة وضعف شبكة علاقاتها الاجتماعية. ومن هنا يؤكد بن نبي أن التفكك الذي يحدث في شبكة العلاقات الاجتماعية بسبب فقدان الأفراد للغاية أو بالأحرى لمعنى وجودهم، سيؤدي إلى فوضى اجتماعية ترجح كفة المطالبة بالحقوق قبل أداء الواجب لان الفرد اخرج نفسه من دائرة التكليف، والمجتمع الذي يصبو إلى التغيير لابد أن تكون إرادته جماعية إذ لا تكفي إرادة مجموعة أشخاص يسعون إلى الصعود بينما معظم وحدات المجتمع تسعى إلى الثبات وعندما يصل المجتمع إلى هذه الحالة يمكن أن نطلق عليها مأساة اجتماعية³⁶.

4-2 المستوى الفكري : لقد ربط مالك بن نبي تدهور المستوى الفكري والعلمي للمجتمعات الإسلامية، بالفوضى الاجتماعية التي تعيشها تلك المجتمعات، لأنه يعتقد أن المجتمع الذي تسوده الفوضى لا يمكن أن يكون أرضية صالحة للعلم، لان الذكاء كما يقول بن نبي "يتبع دائما حال النفس فإذا ما فقدت النفس صفاءها وغايتها فقد الذكاء عمقه " ³⁷ وظاهرة هجرة الأدمغة في العالم العربي والإسلامي، خير دليل على ذلك فعندما تتعطل هذه القوي الفكرية في بيئتها الأصلية التي لا تقدر لا العلم ولا العلماء ويختزل أهلها العلم في شهادات تعلق على الجدران، نفس الطاقات تتفتق بمجرد وصولها إلا تلك البيئة التي تقدم العلماء على المشاهير من الساسة والمغنيين والممثلين وتروي عطشهم بتوفير الشروط الملائمة للعمل الفكري وعلى رأسها الحرية وعدم وضع قيود مسبقة لهذا الإنتاج العلمي والفكري.

ويرجع بن نبي أسباب هذا الجمود الفكري إلى سياسات التعليم التي بقيت أسيرة فترة زمنية ولت، فقد بقيت مناهج وطرق التعليم هي نفسها وهو الذي كان مدير عام للتعليم العالي لكنه فضل الاستقالة، وربما كان السبب هو رفضه للسياسات التعليمية القائمة آنذاك وهي السياسات التي تشجع الكم على الكيف، فعوض أن ينشغل الطالب بموضوع بحثه ومحتواه يقبده الأستاذ بعدد الصفحات فتجد الطالب لكي يصل إلى العدد المطلوب يجتهد في حشو الأفكار وتكرارها ولا يعير أي اهتمام بالمحتوى و لا يؤثر هذا الأمر فيه شيئا مادامت النتيجة مضمونة وبتفوق.

كذلك بالنسبة للكتاب فلا يقيم الكتاب بالنظر في مضمونه بقدر ما يقيم بعدد صفحاته بل إن ماهية العلم في حد ذاتها أصابها تشوه خطير في نفوس طالبيه، فلا يطلب العلم اليوم رغبة في التغيير و التنوير بقدر ما هو زينة وأسلوبا وطرفا، فأصبح الواحد منا يجتهد للحصول على الشهادات العليا لكي يضعها في شهادة السيرة الذاتية حتى يترقى في منصبه أو ليتفاخر بالألقاب التي تمنحه إياه الشهادات مثلما يفتخر الجندي بالأوسمة المعلقة على صدره، والحال هذه كانت النتيجة أن غابت الجامعات العربية والإسلامية في التصنيف العالمي للجامعات.

سبب آخر لانعدام الفاعلية في المجال الفكري يذكره بن نبي والمتمثل في نزعة المديح لتراث الفكري الإسلامي، فنجد المفكر الإسلامي يتغنى بأجداد أسلافه وبما تركوه ولم يفكر أبدا في تنقيح وتمحيص ذاك الفكر لأجل الانتفاع والاستثمار مثلما كان شان الفكر في الحضارة الغربية ، فالنظريات الموجودة حاليا في العلوم المختلفة عبارة عن تنقيح لنظريات سابقة ، فنظرية كوبرنيك طورها غاليليو غاليلي وكان لهذا الأخير تأثير في ديكارت ونيوتن وهكذا ، لكن في النهاية كان هناك ثورة علمية تأسست على مبدأ التعليل والتصحيح وهذا هو الأصل في الشيء.

أضف إلى ذلك غياب إرادة سياسية في هذه الدول لتشجيع البحث العلمي والدليل على ذلك الميزانية المخصصة له، بحيث تعتبر اضعف ميزانية في العالم وكذلك القطيعة بين المؤسسات

الجامعية بباقي المؤسسات الاقتصادية الأخرى ومالك بن نبي يؤكد على هذه النقطة بالذات لأن العلم عنده هو العلم الذي يساهم في تطوير الصناعات أي العلم الذي يرتبط بالحرفية ويعمل على تقدمها ، فالرعي حرفة زهيدة متواضعة إلا أننا نجد لها في فرنسا مدرسة وطنية بمدينة "رامبوليه" تعمل على تخريج رعاة تزودهم بتقنيات وأساليب علمية أكثر من الأساليب القديمة بينما بقيت هذه الحرفة في بلدان العالم الثالث تعتمد أساسا على ما تقدمه الطبيعة³⁸.

4-3 المستوى الاقتصادي: واللافعالية في هذا المجال، تظهر في غياب نظام اقتصادي يتوافق مع المعادلة الاجتماعية للمجتمعات الإسلامية والتي تتمثل في العناصر الثقافية التي تطبع سلوك أفراد المجتمع، وتحدد درجة فعاليتهم أمام المشاكل بصورة تميزهم عن أفراد مجتمع آخر، ويمكن أن نفهم هذه العلاقة في التجارب التنموية التي خضعت لها بعض دول العالم الإسلامي عندما أرادت أن تؤسس لنفسها قاعدة اقتصادية، فلقد استقدمت اندونيسيا أكبر الخبراء المختصين في التنمية الاقتصادية عالميا وهو "الدكتور شاخنت" الذي رفع باقتصاد ألمانيا بين سنوات 1936-1939 ووفرت له كل الإمكانيات المادية لكن عرفت هذه التجربة فشلا ذريعا ، ليس لخلل تقني في الخطة لكن السبب الوحيد هو أن الإنسان لاندونيسي لا يعرف قيمة العمل المنتج ولا يقدر الوقت بالتقدير التaylorي وهذا ما لم يستطع شاخنت أن يقدره في خطته التي وضعها على أساس معادلته الشخصية تلك المعادلة التي شكلتها الظروف النفسية الزمنية للوسط الألماني، نفس التجربة تكررت في الجزائر في سنوات السبعينات ، عندما استدعت الاقتصاد الفرنسي دبرنيس الذي اقترح مجموعة من المشاريع التي اعتقد الساسة أنها ستؤسس لقاعدة اقتصادية قوية تقوم على الصناعة الثقيلة بحكم أن الجزائر بلد غني بموارده الطبيعية، هذه المشاريع تمثلت في ما يعرف بالمفتاح في اليد والمنتوج في اليد، لكن نفس النتيجة توصلت إليها هذه التجربة لأنها وقعت في نفس الخطأ وكانت النتيجة أن أكبر المصانع التي كانت تمثل الرئة الصناعية للبلاد عرفت مشاكل كبيرة أدت إلى إعادة هيكلتها وتناولت عدة دراسات الظواهر المختلفة التي نجمت عن عدم التطابق بين الخطة الصناعية والبيئة الاجتماعية التي طبقت فيها*.

ثم إن المسلمة التي تقول أن المال ضرورة أساسية وأولية للانطلاقة الاقتصادية خاطئة بحكم أن الواقع يفندها، فالدول العربية الإسلامية هي من أغنى الدول لكننا لم نشهد نهضة اقتصادية مثلما حدث في كوريا التي تقل في المساحة والموارد المالية عن الكثير من الدول الإسلامية، ولكن استثمار هذه الدولة كان على قاعدة اجتماعية انطلقت من الاستثمار في الإنسان الكوري، فالقضية إذا بالنسبة إلى العالم الإسلامي ليست قضية إمكان مالي ولكنها قضية تعبئة للطاقات الاجتماعية في مشروع تحركها إرادة حضارية مستغلة في ذلك الوسائل التي في حوزتها مهما كانت بسيطة.

إن مظاهر اللافعالية، مست كل مستويات الحياة الاجتماعية وهذا أمر طبيعي، لان المجتمع نسق كلي كما يؤكد عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز، يتفرع إلى انساق فرعية تتولى كل واحدة وظيفة جزئية لبلوغ هدف المجتمع، إذن يتفق هنا بارسونز مع فكرة بن نبي أن من شروط تحديد مفهوم المجتمع هو تحديد هدف أو غاية له، لان بارسونز يؤكد أن أي نظام اجتماعي لا يمكن أن يعمل إلا في إطار وجود هدف ينشده وإذا غاب هذا الهدف حل الاضطراب والفوضى .

الخاتمة:

هل يمكن اعتبار فكر مالك بن نبي طفرة في زمن ما بعد الموحدين، أم هو رمز لمرحلة جديدة، أراد بن نبي أن يرسم خطوطها وان يضع لها منهجا يعتمد الوسطية بالتوفيق بين الفعل والقول بين العلم والضمير بين الأخلاق والصناعة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، ماذا بعد هذا التحليل والتشريح لواقع اجتماعي، أراد صاحبه أن ينبه أمته إلى مواطن الخلل، وهو الذي أمده الله بنضرة ثاقبة، ومنهجية علمية تبهر قراءه، ونضرة شمولية أحاطت بكل جوانب هذا الواقع من خلال سلسلة من المؤلفات (شروط النهضة، المسلم في عالم الاقتصاد مشكلة الثقافة) لأنه أدرك أن هذا الواقع هو نسق عام، إذا تعرضت احد أجزائه إلا خلل تأثرت بقية الأجزاء الأخرى، وانه لا يمكن بناء مجتمع اعتمادا على بعد واحد، لان الحضارة تقاس ببعديها المادي والروحي، إلى متى سيبقى فكر هذا الرجل حبر على ورق دون تحويله إلى خطة طريق يعتمدها المختصين والمهتمين بشأن هذه الأمة.

الهوامش:

- 1 بن نبي مالك، مذكرات شاهد قرن، ط2، ترجمة عمر مسقاوي، ج1، دار الفكر، الجزائر، 1986، ص15.
 - 2 نفس المرجع، ص47
 - 3 السحمراني اسعد، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، بيط، دار النفاس بيروت 1986، ص163
 - 4 بن نبي مالك، شروط النهضة ط4، ترجمة عمر مسقاوي، دار الفكر، الجزائر 1987، ص56
 - 5 نفس المرجع، ص88
 - 6 بن نبي مالك، مذكرات شاهد القرن، مرجع سابق، ص89
 - 7 نفس المرجع، ص91
 - 8 جغام ميلود، مؤثرات اذكت فكر مالك بن نبي، مقال في الشروق الثقافي، ع15، ص12
 - 9 محمد مصطفى، تاريخ مرحلة دعوية حاسمة، مجلة التذكير، ع6، فبراير 1990، ص41
 - 10 بن نبي مالك، ميلاد مجتمع ط3، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر الجزائر 1986، ص17
 - 11 عاطف غيث محمد، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 1989، ص373
 - 12 بن نبي مالك، أفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية 1991، ص46
 - 13 بن نبي مالك، شروط النهضة، مرجع سابق، ص56
 - 14 بن نبي مالك، شروط النهضة، مرجع سابق، ص60
 - 15 بن نبي مالك وجهة العالم الإسلامي، ط5، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر، الجزائر 1986، ص32
 - 16 المنجد الأبجدي، ط3، دار المشرق، بيروت، ب س، ص766
 - 17 بن نبي مالك تأملات، ترجمة عمر مسقاوي، دار الفكر دمشق 1981، ص56
 - 18 بن نبي مالك، شروط النهضة، مرجع سابق، ص84
 - 19 بن نبي مالك، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص19
 - 20 عودة محمود تاريخ علم الاجتماع، ج1 دار النهضة للطباعة والنشر بيروت ب س، ص121
 - 21 شرقاوي عفت، في فلسفة الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية 1979، ص209
 - 22 بن نبي مالك شروط النهضة، مرجع سابق، ص68
 - 23 نفس المرجع، ص74
 - 24 سورة الاعراف الآية99
 - 25 سورة يوسف الآية 87
 - 26 بن نبي مالك، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص23
 - 27 بن نبي مالك، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص108
 - 28 حديث رواه الطبراني، منهاج الصالحين، ص207
 - 29 بن نبي مالك، شروط النهضة، ص76
 - 30 ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982، 665
 - 31 بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص32
 - 32 نفس المرجع، ص33
 - 33 بن نبي مالك، مشكلة الثقافة، ط4، ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر دمشق، ص74
 - 34 نفس المرجع، ص75
 - 35 بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص74
 - 36 بن نبي مالك، شروط النهضة، مرجع سابق، ص104
 - 37 بن نبي مالك، المسلم في عالم الاقتصاد، ط3، دار الفكر، الجزائر 1987، ص17
 - 38- نفس المرجع، ص17.
- *هناك العديد من الدراسات التي تناولت عدم تطابق الخطة التنموية في جانبها الاصناعي خاصة مع البيئة الاجتماعية او مايسميه بن نبي بالمعادلة الاجتماعية واهم هذه الدراسات دراسة احمد هني المتمثلة في كتابه الشيخ والسيد" ودراسة علي الكنز وسعيد شيخي المعنونة "اشكال التصورات والممارسات العمالية" .